خواطر في الحرب

للأستاذ محمد عرفة

لم يبق ريب فى أن من أعظم الأسباب فى سقوط الدولة الفرنسية الترف

اعترف بذلك الباحثون والكتاب ورجال السياسة ، قال بيتان رئيس الوزارة الفرنسية :

« لقد دمرت روح الانتهاس فى الملذات ما شيدته روح التضحية ، أصلحوا من أخلاقكم ودعوا الترف والملذات ، وأقبلوا على العمل بصبر وتضحية »

ليس فى ذلك كله شك ، إنما الشك فيما أعرضه على نظر القراء : أيمكن للأمة تجنب الترف ، أم أن الترف أمر لازم يتبع الغنى والثروة ، والزهد والحرمان يتبع الفقر والإملاق ، فالأمم الغنية حتما تنغمس فى الترف والنعيم ، والأمم الفقيرة تكون بمنجاة منهما ، وذلك لا يغلُّ حدها ، وتبقى لها قوة الصبر والمجالدة ؟

حوادث التاريخ تنبئنا أن المذهب الثانى هو الحق فإذا صحّ تفوق بمراحل هذه المكاسب الزهيدة التى يصل إليها العلم أثناء السلم بعد فترة أطول من الزمن ، فتقدم العالم مطرد سواء فى السلم أو فى الحرب إلا أن فترة الحرب فترة انقلاب وسرعة

الخسائر والأرباح

وهى فترة انقلاب ضرورية إلى أن تصفو الضمائر وتقتنع العقول بأن الحرب مهما أكسبت من أسلاب وغنائم ، فلن توازى ما يخسر العالم من أموال ومن أرواح ؛ وبلغ عدد القتلى والجرحى فى الحرب الماضية ٢١ مليون نفس ، وتكلفت ٦٧٫٥٩٨ مليون جنيه ؛ وبديهى أن هذه الأنفس والأموال لو وضعت تحت تصرف العلماء والمخترعين لأنتجوا أضعاف ما أنتجت الحرب من تقدم

وها هى ذى الحرب الحالية تنفق عليها انجلترا وحدها ٥٢ مليون جنيه فى الأسبوع الواحد ؛ فإذا قلنا إن ألمانيا تنفق نصف هذا المبلغ عرفنا كم تتكلف الحرب من أموال تضاف إليها خسارة الأرواح وكساد بعض نواحى الحياة المدنية مما لا تتلاءم طبيعته وطبيعة الحرب

هذا كان الوجود مقسما قسمة عادلة ؛ فما خسره الفرد من ذات يده ربحه من ذات نفسه ، وما ربحه من ذات نفسه خسره من ذات يده ؛ أى أن الفقير المعدم وإن خسر المال يربح قوة العزم والقدرة على المقاومة ، فهو يخسر الكنوز فى المال ، ويربح الكنوز فى الأخلاق والقوى ، والغنى القادر — وإن كسب المال — يخسر القوة والقدرة على المقاومة فهو يكسب كنوز المال ويخسر كنوز الخلق والقوة والنفس

عدل فى القسمة ، وكنوز بدل كنوز ، بل ربما كان حظ الفقراء أوفر من هذه القسمة ، فإن الكنوز النفسية أثمن من كنوز الذهب والفضة بما لا يقدر

وإذا صح ذلك أيضاً كان التاريخ متشابهاً ، وهو يتكون من دورات رحوية ، لا تبدأ حتى تنتهى ، ولا تنتهى حتى تبدأ

فأمة تتغلب على أمة ، فتغتصبها خيراتها ، وتتمتع بهذه الخيرات دونها ، فإذا فتحت عليها كنوز الأرض ، وانغمست فى النعيم ، ضعفت شوكتها ، ولانت قناتها ، وتغلب عليها من هم أقوى منها ، ممن لم يفسدهم الغنى والترف والنعيم ، وممن ازدادوا حصانة بالفقر والإقلال .

محمد عرفة

ولا يسعنا أن نقول إن الفنون والعلوم توقف تماماً ، ولكنها تتحول إلى الناحية العسكرية ، فيشتغل القصصيون بالقصص العسكرية ، ويرسم الفنانون الصور العسكرية ، وتتحول العقول الهادئة إلى عقول مدمرة عملها شحذ عزائم أهلها ؛ فكل أديب أو فنان لا يعمل الآن من أجل الحرب يموت جوعاً ، ولا يتيسر له إبراز إنتاجه لأنه يعيش فى وادى غير وادى الناس ويفكر فيما لا يفكر فيه الناس ، ويبتدع ما لا يقره الناس

فالقتال إحدى الغرائز الإنسانية ، صقلتها القوانين والنظم ، وكبتت فى الفرد ، ولكنها ما زالت بارزة فى الجماعة ، فإلى أن يتاح للجماعة أن تكبت هذه الغريزة وتحولها إلى غريزة أصلح ، فإن الحرب لن تزول

وإذا كانت الحكومات وفقت فى ضبطها عند الأفراد ، فمصيرها غامض عند الأمم لاختلاف أمزجتها وميولها اختلافاً بيناً وإن كانت نهايتها المحتومة عند ما تعقل الدول

فوزى الشترى
بكالوريوس فى الصحافة